قصّة قصيرة

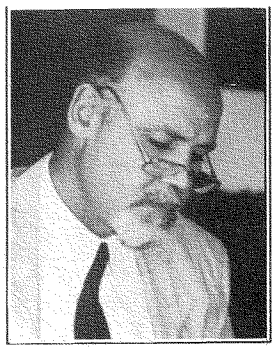

أحمد زيادي

الصّـــورة(*)

خمسون سنة مرت ولم أرشد إلا منذ شهرين. زرْت في الأسبوع الأول إخواني، كان الجرح لا يزال نازفاً، وكانت العيون فوارة، قالت لي زوجتي وَهي تعدّني للمهمة:

ـ عليك أن تبدو أمامهم رجلاً.

ولما رأتني واجماً متفكراً أردفت:

ـ لقد انتهى عهد الوصاية والحجر، عليك أن تتعلم كل ما فاتك خلال السنين الطويلة، في أقرب وقت..

ولعلها شعرت بترددي، وبما يجول في خاطري من أفكار ومشاعر، فعادت تقول:

ـ إذا كنت ترضى لنفسك أن تظل أضحوكة تتداولها الأفواه، فأنا لا أرضى لزوجي هذه الوضعية.

وبعد فترة صمت قصيرة تابعت كلامها بصوت مرتفع وحازم:

ـ هذا الوجوم يكون من أجل الأموات، وأنا وأنت ولدنا الآن، وهذه الدموع السخية لا تناسب رجلاً أشيب مثلك، دعنا من التردد والحيرة، وهيا شمّر عن ساعد العمل والجد.

واعتبرت الحديث منتهياً، فأسلمت رقبتي للكسوة الجديدة، ورأسي للعمامة الطويلة، وقدمي للبلغة الصفراء، وتحاملت على نفسي، وجررت رجلي نحو العربة الجديدة، وأنا أسترق النظر إلى زوجتي التي كانت لا تفتر عن تشجيعي وحثي على التماسك، وإعانتي على الركوب. وأخيراً ناولتني الزمام، وأزاحت الحجر الذي كان يعترض العجلة، ولوحت بيدها، فتحركت العربة ومضى (القداشي) يجرني. وحانت مني التفاتة، فرأيت مريم لا تزال واقفة، تلوح لي بيدها. ولو كان لي ولد لجنّبني مواقف الحرج في هذه السن من عمري، لكن الحمد لله على كل حال.

وكان ما لم يكن في الحسبان، توقف البغل قبل أن تتوارى عني الدار وراء أول منعرج، دعوته إلى المضي بهدوء، فأبى، فلامست ظهره بالزمام برفق، فلم يحرك ساكناً، فنزلت متعثراً، فمسحت على كتفه وكفله، وهمست في أذنه:

ـ أيها الغدار، تتخلى عني في يوم أنا فيه أحوج ما أكون إليك، ونسيت الليالي عنك.

ولما أصرّ على الحران، انقضضت عليه ضرباً، فركلني، وقفل راجعاً إلى الدار كالسهم فنزعت بلغتي، وسلكت لنفسي طريق العودة عبر ممرات الحدود. وسمعت في تلك الليلة ما لم أسمعه من قبل. ولو كانت لي شخصية قوية لطلّقت الزوجة، ومضى كل منا إلى حال سبيله، ولكن ماذا سيقول عني إخواني؟ وماذا سيقول عني الناس؟ ومن سيؤنس وحدتي بعد عشرة عمر بدون بنين ولا بنات؟ وأنى لكبدي الهشة قوة الاحتمال على جرحين؟ وأنى لقلبي المرهف أن يصبر على فراق الإخوان، وفراق الزوجة، وفراق بيت الأجداد، وفراق الأحباب والأقران، دفعة واحدة؟

كانت قبل الافتراق لا تحدثني إلا همساً، وكنت أعتقد أنها تخافني، ولكن تبين لي فيما بعد أنها كانت تخاف أخي الأكبر، لقد كان مسؤولاً عن أمن البيت ونظامه، لذلك كانت عصاه تلهب ظهر كل من تسوّل له نفسه إثارة الفوضى وخاصة النساء.

لكن، والحق يقال، كم من مرة أثبتت لي الأيام رجاحة عقلها، بيد أني لا أستطيع أن أعترف لها بهذه الميزة، لأنني لو فعلت ذلك لما بقي لي من حجة لرفض مطالبها الأخرى، وهي مطالب تمس كرامتي، وتجرحني أمام رجال القبيلة، أما هي فلم تكن تقابل أحداً إلا متلحفة وصامتة؛ لذلك لم تكن تعاني ما أعانيه أنا المطالَب بالتبرير والتعليل والتنفيذ.

استيقظت في صباح اليوم التالي مبكراً، وخرجت إلى فناء الدار، فجلست بالقرب من الاصطبل أخط الترب بعود سدر، وفجأة سمعتها تقول لي:

ـ املأ معالف المواشي وهيا إلى الدوار.

التفتّ إليها، كانت ترتدي ثيابها الجديدة، وقد مشطت شعرها وفتلته ضفائر، فقمت أنفذ ما طلبت مني.

وتولت هي السياقة، وكلّما حاذينا منزلاً، أو دنونا من شخص، ناولتني الزمام والسوط، فتظاهرت بالسياقة، ورفعت صوتي بالوعيد، و(القداشي) ينطلق بخفة ونشاط.

وفي نهاية الشهر الأول اضطررت إلى زيارة صهري بالمدينة، وباتت مريم توصيني وتحذرني من أهل المدينة، حتى اعتقدت أني أصبحت أعرف الناس بهم، وحين نزلت في محطة الحافلات استوقفت سيارة أجرة، وناولت السائق العنوان.

ـ ها هي العمارة، هات عشرة دراهم.

(*) من مجموعة تحت الطبع بعنوان (خرائط بلا بحر)

ففكرت ثم ناولته خمسة، فحدجني بنظرة حانقة وصرخ في وجهي:

ـ قلت لك عشرة دراهم..

تراجعت قليلاً، وأحسست برعِدة، لكن توصيات مريم كانت تتردد في داخلي كالهتافات، فتشجعت، وبلعت ريقي، وتظاهرت بالشطارة والحذق، وقلت له:

ـ لقد سمعتك، لكنني لم أكن في السيارة وحدي، نحن اثنان، إذن خمسة لي وخمسة لك!

وألقيت برجلي إلى الرصيف، وأنا أمسك بسلتي، وأغلقت الباب خلفي، واندفعت نحو باب العمارة، وأنا أتصامم عن صراخه.

وقبل أسبوعين بلغ إلحاح مريم على أداء فريضةَ الحج أوجه، ولم يبق هناك بد من بيع هكتارين لتغطية المصاريف، لكن إجراءات البيع تطلبت بطاقة التعريف، ولم أكن خلال ما مضى من عمري لا في العير ولا في النفير، كان أخي الثاني يتولى عمليات الشراء والبيع والكسوة والتموين وسائر الاجراءات الإدارية، وكانت مهمتي تنحصر في الإشراف على الحرث أيام الخريف، والتنقية والعناية أثناء الشتاء والربيع، والحصاد والدرس وتجميع التبن في طلائع الصيف، وخلال ذلك كله كنت مشرفاً كذلك على الرعي، ومكلفاً بإقراء ضيوف القرية من عطارين وطلبة ومسافرين، وإعداد الخيام لإقامة الحفلات والمواسم. لذلك لم أكن أنا وإخوتي الثلاثة في حاجة إلى بطاقات.

وكان أول إجراء يتطلبه توثيق الهوية هو الحصول على صور شخصية، وقد زرت في الأسبوع الماضي محل التصوير الوحيد في المركز، فالتقط لي صورة، وطمأنني أنها ستكون جيدة. وعدت في الغد لاستلامها. وكان صاحب المحل منهمكاً في التقاط الصور لبعض الزبناء، وكلف أحدهم بتقديم صندوق الصور إليّ، فاستعرضت الرزمة الأولى، كانت تضم صوراً لامرأة، فوضعتها جانباً، ووجدتني أعرض عن الاطلاع على أسرار الناس وعوراتهم، واكتفيت بالرزمة الثانية وقلت لصاحب المحل بأعلى صوتي:

ـ أفي هذه صورتي؟!

فجاءني صوته من داخل المخدع:

ـ إن كنت قد تعرفت عليها فخذها.

استطاع بتقنيته العالية أن ينزع عني الجلباب، ويلبسني القميص والمعطف ورباطة العنق، ويعيد إلى رأسي الشعر الغزير، ويعوضني بعض ما ضاع مني أيام اشتغالي بالفلاحة والماشية أيام الطفولة والشباب مما يتمتع به أهل المدينة.

لكن مشكلة جديدة ولدت عند وصولي إلى البيت، فقد سلمت الصورة لمريم وأنا أثني على الرجل وأدعو له.

لكنها ما كادت تتناول الصورة حتى صاحت:

ـ أين صورتك؟

قلت لها بهدوء:

ـ إنها بين يديك!

ـ أنت تستهزئ بي؟

ورمت الصورة في وجهي وهي تصرخ:

ـ أرجع الصور إلى صاحبها.

وأحسست بجرح الإهانة، فاصطنعت الغضب، وقلت لها:

ـ إن صورتي قبيحة في عينيك، لذلك لن تقبلي صورة تفّنن رجل ـ جزاه الله عني خيراً ـ في تجميلها وتحسينها.

فقامت منفعلة، وأطلت من فوق السور، ثم نادت الراعي، وبعد لحظات ثقيلة الوطء دخل فناولته الصورة قائلة:

ـ هذه صورة من؟

وما كاد يتفحصها قليلاً حتى قال وهو يردّها إليها.

ـ لا أعرف!

فقالت له بخبث:

ـ ألا تعرف عمك بوشعيب؟

فقال وهو يغادرالغرفة:

ـ إنه ليس هو!

فالتفتت إليّ إذ ذاك وقالت بصرامة:

ـ هل اقتنعت الآن؟!

تناولت الصورة، ووضعتها في جيبي، وفي طريقي إلى خارج الغرفة أخذت المرآة خفية من الرف، وخرجت إلى الأجران. وهناك رحت أقارن بين وجهي وبين الصورة في المرآة. في اللحظة الأولى كنت أكابر وأقول إن الرجل أحسن إدراك الفوارق الواضحة جداً بيني وبين صورة الشخص المجهول، ووجدتني مرة أخرى أعترف في نفسي لزوجتي بالفطنة ودقة الملاحظة، ولكن كرامتي لم تسمح لي بالاعتراف لها بذلك، وفضلت الإصرار على رأيي في الظاهر وإن كنت في الباطن قررت العودة إلى المركز، في الصباح الباكر، لاستبدال الصورة.

ولما توقف بوشعيب بباب محل التصوير، بادره صاحبه بقوله:

ـ لِمَ لم تأخذ صورك أمس؟

فأخرج الصور المجهولة، وناوله إياها وهو يقول:

ـ ظننت أنها هي هذه!

فلما نظر إليها تغير وجهه وقال بغضب:

ـ كيف تأخذ صوراً ليست لك؟

وكان بو شعيب يقف قبالة الواجهة الزجاجية مرتبكاً، وفي لحظة عابرة، خيل إليه أنه رأى مريم تطل عليه من وراء الزجاج ساخرةً من غباوته، وكاد يهرع نحوها، لولا اختفاء طيفها، فتوقف في الحديث، وقال بسذاجة:

ـ سامحني، إنني فيما مضى من عمري لم أكن أجد إلى المرايا سبيلاً، وكان مما يعاب على الرجال في قريتنا تقليد النساء في النظر إلى المرآة، لذلك ظلت صورتي غير مألوفة لدي، فصعب علي التعرف عليها بدون مساعدتك.

فحدجه صاحب الدكان بنظرة مستريبة، ثم ناوله صوره، فرفع بوشعيب يده مودعاً، وقبل أن يغادر باب المحل، اختلس نظرة إلى الصورة العليا، فتنهد وقال في نفسه: شتان ما بين تلك وهاته!! وتساءل: بم سيفخر الآن أمام مريم وأمام إخوانه، لا قميص ولا بذلة ولا رباطة عنق ولا شعر مفروق ومرسل بعناية؟

وعض شفته السفلى، وهو يمضي نحو العربة، وحوله الأطفال يلعبون بفرح ونشاط. وقبل الركوب، عاد ينظر إلى الصورة، وفجأة أحس ببروز ملامحها الخاصة، وبدأت الألفة تنسج خيوطها الخفية بينه وبينها، وتكوّن لديه اقتناع بأن صورته وإن كانت أقل جمالاً وشباباً وغنى من صورة الشخص المجهول، فقد نجحت في إمداده بإحساس جميل حرمه منه الحَجْر والعقم نصف قرن من الزمان.

الزمامرة (المغرب)